نحو تأصيل التراث الحضاري للجزيرة العربية

عبد الرحمن الطيب الأنصاري

ملخّص : تمتلك الأمة الإسلامية تراثاً حضارياً كبيراً، ولاتكاد توازيها في هذا الإرث أمة من الأمم الأخرى . وقد بدأت انطلاقة الحضارة الإسلامية من الجزيرة العربية ، حيث بزغ فجر الإسلام . واستندت الحضارة الإسلامية على التراث الحضاري في الجزيرة العربية، التي شهدت قيام العديد من الدول والممالك العربية، مثل سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان وحمير واللحيانيين والأنباط وكندة وتدمر. وقد تركت هذه الممالك العديد من الآثار المعمارية والفنية، التي تأثرت بها حياة العرب، وكان لها دور في تكوين الحضارة الإسلامية. ولعل من أهم مايربط الإنسان بالأرض، هو مايعيش الإنسان منه وبه، من مهنة أو حرفة تربطه بمجتمعه، حيث يقدم لمجتمعه خدمة تجعل وجوده ضرورة ملحة بالنسبة لقومه. فيشعر عندئذ بدوره، ومن ثم يتمكن من إجادة مايقدمه، نتيجة للتنافس الشديد بينه وبين أقرانه، في الصنعة أو المهنة. وتتعدد المهن والحرف، بتطور المجتمع وتنوع حاجاته. فتنشأ الحاجة المتبادلة بين الناس. وكان التبادل، أولاً مقايضة نوع بنوع، أو خدمة مقابل صنف، أو سلوك مقابل نوع من الاحتياجات، التي يتميز بها شخص عن الآخرين. فيتحقق بذلك قول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة　　بعض لبعض وأن لم يشعروا خدم

Abstract. *The Islamic nation has enjoyed a great cultural heritage hardly matched by any other nation. At the dawn of Islam, Islamic civiliztion rose from the Arabian Peninsula reinforced by the rich cultural heritage of the area. The Arab lands had already witnessed the rise of many Arab kingdoms and states: Sabae, Maen, Hadramawt, Qataban, Osan, Himyar, Lihyans, Nabateans, Kindah, and Palmyra. Those various kingdoms had left many architectural and artistic archaeological remains that had not only influenced the lives of Arabs, but also played a role in the formation of Islamic civilization itself. The strongest tie between a human being and land is perhaps the agency by and through which one may earn one's subsistence. This agency can be a profession or an art that essentially ties a person to the community where, while he / she provides a service to the community, his / her presence becomes a necessity within that society, and thus one realizes his / her importance. Owing to fierce competition among artisian peers, one cannot do without perfecting one's art or profession. Yet, professions and arts grow according to the development and needs of society; people then realize their mutual inter-dependence on one another and start to exchange their services to satisfy their necessities. At first, exchange assumes the form of bartering one item for another, or one service for an item,or a certain behavior for a certain kind of needs that a particular person is capable of satisfying. The essentiality of such mutual activities of trading confirms the common wisdom commemorated by the ancient Arab poet when he insightfully maintained that: aware or not, people to people in all walks of life are only, one to another, servants.*

تمثل الآثار النتاج الحضاري المادي، الذي خلفته الأمم السابقة. وتنقسم إلى : آثار ثابتة، مثل المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية وغيرها؛ وآثار منقولة، وهي التحف المصنوعة من عدة مواد، مثل الحجر والرخام والعظم والفخار والخزف والخشب والزجاج والنسيج والسجاد. أما التراث فهو الموروث الحضاري للأمة، الذي ورثته عن

العدد الثالث شوال ١٤٢١هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠١م
(ص ص ٢٩ - ٤٠) ردمد : ٨٩٤٧ - ١٣١٩

أسلافها، سواء كان ذلك الموروث مادياً أو أدبياً. وارتكزت الحضارة الإسلامية في انطلاقتها، على تراث حضاري مادي ورثته عن الممالك العربية، التي قامت في الجزيرة العربية قبل الإسلام مثل ممالك سبأ ومعين وحضرموت وقتبان وأوسان وحمير واللحيانيين والأنباط وكندة وتدمر. فكل آثار تراث، وليس كل تراث آثاراً. وبينهما عموم وخصوص والتداخل واضح بين الآثار والتراث، سواء كان منه المادي أو الفكري أو الروحي.

وفي ضوء التعاليم الإسلامية، افترق التراث عن الآثار فيما له صلة بالعقيدة، والتقيا فيما دون ذلك، أي مايمس جوانب الحياة المختلفة. فارتبط التراث بالاثار، في العمارة المدنية والفنون والكتابة واللغة والزراعة والحرف والصناعات اليدوية.

ويظهر افتراق التراث عن الآثار، فيما يتصل بالعقيدة جلياً في المعتقدات الدينية الخاصة بالحج والزكاة. فقد كان العرب قبل الإسلام يحجون إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ومنذ أن أقدم عمرو بن لحي الخزاعي، على نصب الأصنام حول الكعبة، فاتخذها العرب آلهة من دون الله سبحانه وتعالى ، أو كما زعموا لتقربهم إلى الله زلفى، فانحرفوا بذلك عن التوحيد، على الرغم من أنهم كانوا يقومون بتأدية بعض أركان الحج وشعائره، مثل الطواف والإحرام والتلبية. لكنهم أدخلوا عليها إضافات وثنية، مثل قولهم في التلبية "لبيك لاشريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك" وغير ذلك؛ ومثل سنهم عادة الطواف عرايا والتصفيق والتصفير أثناء الطواف "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية" (سورة الأنفال ، الآية ٣٥) ومع مرور الزمن حفلت الكعبة المشرفة بالأصنام، مثل آساف ونائلة وهبل (السهيلي ١٣٣٢ : ١/٦٢-٦٦) ، وعندما جاء الإسلام، وتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، بدأ أول مادخل إلى المسجد الحرام بإزالة الأصنام والصور والتماثيل من حول الكعبة، وطهرها من هذا الرجس (الأزرقي ١٣٥٢: ١/٧٠؛ ابن الكلبي ١٣٤٣: ٣١) "قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً" (سورة الإسراء الآية ٨١).

وبهذا فقد ابتعد التراث الديني عن الآثار ،لأن الأمر هنا يخص العقيدة ، فلا يوجد أي ارتباط بينهما. فقد كانت التعاليم الإسلامية واضحة وصريحة، في الفصل بين المعتقدات الدينية والماديات، من أصنام وصور وغيرها. كذلك ينطبق الأمر على الزكاة، التي كان يعرفها العرب قبل الإسلام. وتشير الأدلة الأثرية إلى أنهم قدموا الزكوات والقرابين ، إلى معبوداتهم الكثيرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، تقرباً إلى تلك المعبودات. كما فرضت عليهم زكوات على الزروع والحيوانات ولتجارة، تقدم سنوياً إلى المعبودات. وكان القيم على تلك الزكوات، إما الحكام أو الكهنة (الفاسي ١٤١٤: ٢٧٦-٢٨١؛ أبو الحسن ١٤١٨: ٣٨٧-٣٨٩). ولكن بعد دخول الإسلام تغير الأمر تماماً، حيث أوضحت التعاليم الإسلامية أن الزكاة فرض على المسلم تقدم من أجل مرضاة الله وطلباً لغفرانه. وحددت التعاليم الإسلامية وجوه الزكاة، من زكاة المال والزروع وعروض التجارة وأوجه صرفها. وبعد انتقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الرفيق الأعلى ، ومنع بعض القبائل العربية دفع الزكاة، حاربهم خليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال قولته المشهورة : "والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلي الله على وسلم لقاتلتهم عليه". وينطبق الأمر نفسه على الصدقات والنذور ، التي كانت تقدم للمعبودات، والأضاحي التي تذبح لغير الله. فقد وقفت التعاليم الإسلامية هنا حائلاً دون التأثر بالتراث أو بالاثار، التي دلت على تقديم الصدقات والنذور والأضاحي للمعبودات، وخلصت الناس من التعلق بالأوثان من شجر وحجر ،كما خلصت الحج مما لحقه من أوشاب وأدعية وتلبية، تحمل في ثناياها الشرك بالله الواحد الأحد.

العمارة :

اقتبس العرب قبيل الإسلام البناء المتجانس مع تراثهم الحضاري، الذي ورثوه عن الممالك العربية، التي قامت في الجزيرة، إلى جانب مانقلوه عن طريق اتصالهم المباشر بالحضارات المعاصرة. وتحدثت النقوش

العربية القديمة، عن مواد البناء والعمال والمقاييس والمعدات، وانواع المباني والمنشآت الدينية والعسكرية والسكنية، ومنشآت الري والزراعة، وتقسيم البيوت إلى مداخل وأبهاء وحجرات وقاعات، ومرافق خدمية ومنافذ وملاحق. وعرف العرب البناء بالأحجار أو اللبن. وكان تخطيط المدينة يتمحور قبل الإسلام، حول المعبد وقصر الحكم والسوق (لوحة : ١). وبعد الإسلام كان المسجد هو مركز المدينة الإسلامية. فقد أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده في المدينة المنورة، وكان هو مركز العمران بها. وبعد ذلك عندما تأسست مدن الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، كان المسجد هو البناء، الذي تتمحور حوله بقية مرافق المدينة وبيوتها. وبجوار المسجد كان يوجد قصر الوالي أو الحاكم والسوق، ثم تحاط المدينة بسور ليسهل الدفاع عنها. وبذلك لم يكن المسلمون متأثرين في تخطيط المدن بالفرس أو الروم. فقد كانت أهم المكونات المعمارية في قرية الفاو، على سبيل المثال، تهتم بالمعابد والسوق والقصر والمساكن والمقابر (شكل ٢،١)

ثم تأثرت طريقة تخطيط المدن والبيوت بالتعاليم الإسلامية، مثل القبلة وكونها أحد العوامل المؤثرة في توجيه البيت ، مثل النهي عن استقبال القبلة أو استدبارها عند قضاء الحاجة، وعدم اختلاط الرجال بالنساء، وحقوق الجار، وحقوق الطريق. وارتبط التراث المعماري بالآثار في تخطيط العديد من المدن الإسلامية وبنائها ، خاصة تلك التي نشأت بجوار بعض المراكز الحضارية القديمة، أو على أنقاضها. فاستعانت في عمرانها بالأساليب المعمارية الموروثة، إلى جانب إعادة استخدام ما أمكن من أحجار وأعمدة وأعتاب وغيرها. واستمر العرب في البناء بالطين، في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر، بعد ظهور الإسلام. وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه سكان قرية الفاو (مابين نهاية القرن الرابع قبل الميلاد إلى بداية القرن الرابع الميلادي) بل أن بيوت قرية الفاو كانت تعلوها شرفات مثل الشرفات الموجودة في المباني المشيدة من الطين في نجد، وغيرها من مناطق الجزيرة العربية (الأنصاري ١٤٠٢: ١٨)، وهي نفسها التي تأثرت بها الشرفات

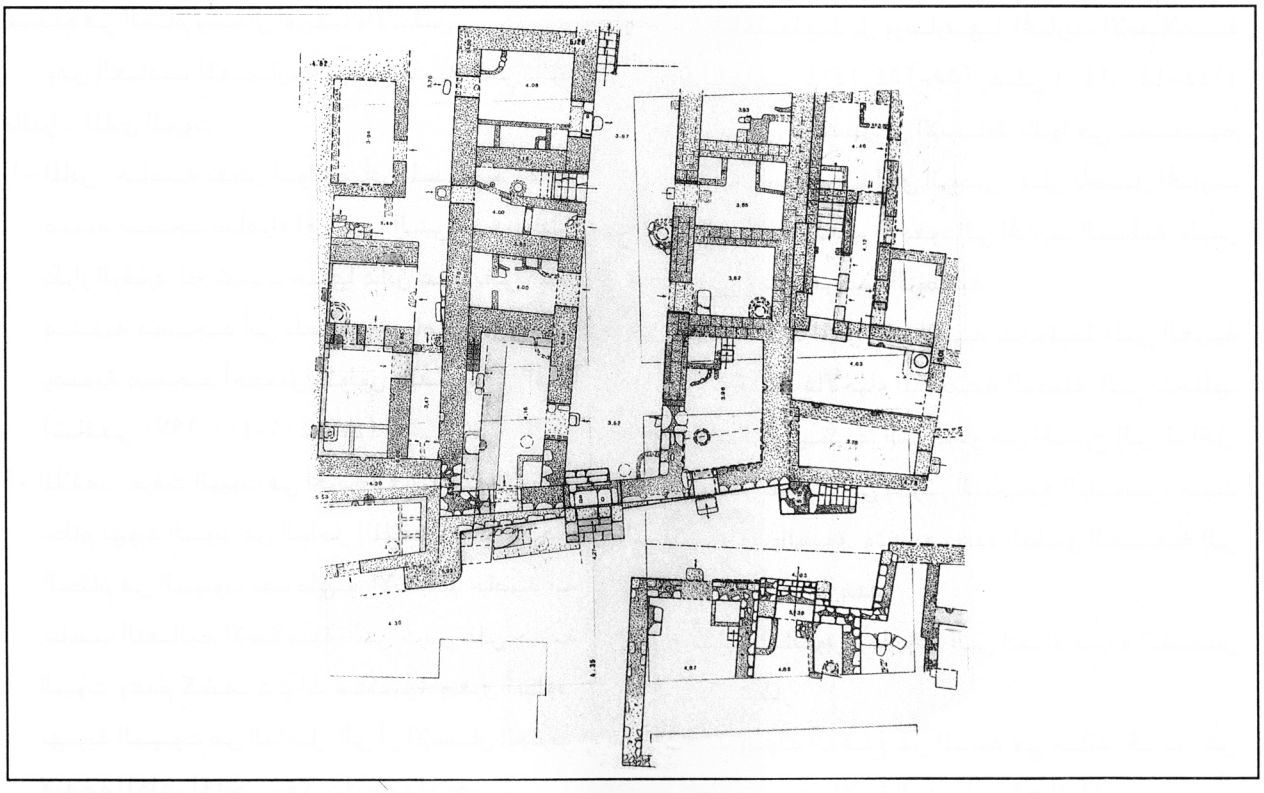

شكل ١ : مخطط مفصل لأحد القصور في قرية الفاو.

الموجودة في المساجد الإسلامية المبكرة، في العصرين الأموي والعباسي، والتي حاول المستشرقون تأصيلها إلى عناصر معمارية مستمدة من الآثار الرومانية والبيزنطية. وشيد العرب بعد الإسلام العديد من القصور، التي تأثرت في عمارتها بالقصور العربية، التي شيدت قبل الإسلام ، ومنها القصور الأموية في صحراء الشام، مثل قصر الحير الغربي، وقصر الحير الشرقي، وقصر هشام في خربة المفجر، وقصر الحلابات، ومجموعة من القصور الأموية، التي شيدت على ضفاف وادي العقيق بالمدينة المنورة. واستمرت العمارة الإسلامية تنهل من التراث المعماري العربي، وظهر ذلك جلياً في عمارة قصر الأخيضر ، الذي شيد في العصر العباسي. وفي تخطيط البيوت نجد تشابهاً كبيراً، بين تخطيط بيوت قرية الفاو وبين البيوت المشيدة في الجزيرة العربية بعد الإسلام (شكل : ١) ، وإلى يومنا هذا، حيث يتكون البيت من باحة فسيحة، توجد حولها الغرف، وفي الغالب يوجد البئر بداخل هذه الباحة (الأنصاري ١٤٠٢:١٨) . وقد نقل العرب، بعد الإسلام، هذا التخطيط إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي، فنجده في الشام وشمال أفريقيا والأندلس.

ومن العناصر المعمارية الإسلامية، التي تأثرت بالتراث المادي الموروث :

١- المآذن : خاصة بعض أنواع مآذن المساجد ، مثل مئذنة مسجد سامراء (ق ٣هـ) التي شيدت على طراز الزقورة، ثم شيدت مثلها مآذن عدة، بقي منها مئذنة مسجد أبي دلف في سامراء (ق ٣هـ)، ومئذنة مسجد أحمدبن طولون بالقاهرة (ق ٣هـ) (شافعي ١٩٧٠: ٤٠٠-٤٠٦، ٤٧٩).

٢- الملاقف : عرفت البيوت في الجزيرة العربية قبل الإسلام، نظام تهوية البيوت من الداخل (الملاقف). واستمر هذا النظام في البيوت بعد ظهور الإسلام، خاصة أنه يناسب التعاليم الإسلامية، التي تحرص على حرمة البيوت، وعدم كشف عورات ساكنيها. ويعزى أسلوب تهوية البيوت من الداخل، إلى أن الإنسان العربي لايهمه المظهر الخارجي، بقدر ما يهمه الجوهر.

٣- شبكات المياه : عرفت بعض المدن العربية القديمة نظاماً فريداً، لتوصيل مياه الشرب الى البيوت، وصرف مياه المجاري عنها. وتشير الأدلة الأثرية، التي عثر عليها في مناطق مختلفة، ومن بينها الفاو ، إلى وجود مجار للمياه النظيفة، وخزانات للمجاري، مما يؤكد وجود مراحيض في الطوابق العليا من المنازل. كما عرفت مدينة العلا نظاماً متقناً في توزيع المياه على المزارع والمنازل (الأنصاري ١٤٠٢ : ٢٢). ثم ظهر هذا الأسلوب، الذي وجد في الفاو والعلا، في مدينة الفسطاط، التي شيدت بعد الفتح الإسلامي لمصر سنة ٢١ هـ ، حيث يعد نظام تزويد بيوت الفسطاط بالمياه من أرقى النظم ، التي عرفت آنذاك.

٤- المحاريب : هو مكان وقوف الإمام للصلاة في المسجد. وقد أرجع المستشرقون أصل المحراب الإسلامي الي أصول معمارية هلنستية وبيزنطية، حيث أكدوا أنه تأثر بحنية أفروديت. ونسى هؤلاء، أو تناسوا، أن المنطقة الدينية في (الحجر)مدائن صالح، تضم العديد من المحاريب، التي تشبه في شكلها وتخطيطها، بل وزخارفها، المحاريب الإسلامية (الفاسي ١٤١٤: ٢٥٤-٢٥٥؛ هيلي ١٤٠٦: ١٤٠-١٤٤). وحتى لو قيل أن الأنباط تأثروا في تصميم محاريبهم بما لدى الرومان ، فإن تأصيل المحاريب الإسلامية يجب أن يعود إلى المحاريب النبطية، وليس إلى حنية أفروديت الرومانية.

كما تأثرت المدن الإسلامية بتخطيط المدن العربية قبل الإسلام. فالأحياء المتلاصقة المتصلة، التي تتخللها الطرق الضيقة، التي تؤدي من الخارج إلى الداخل، وتفضي غالباً إلي مركز التجمع الرئيسي، حيث المسجد والسوق. وتهدف هذه الطرق الضيقة إلى تحقيق عدة مزايا، منها :

أ- ضيق الشوارع، مما يؤدي الي اتقاء حرارة الشمس والأمطار.

ب- سهولة الدفاع عن المدينة في حالة الحرب ، عن طريق سرعة الانتقال عبر أسطح المنازل.

ج- ضيق الشوارع وتعرجها يجعل من الصعب على الغريب السير فيها، فينكشف أمره في سهولة ويسر.

وعلى الرغم من كل هذا التراث المعماري، الذي ارتكزت عليه العمارة الإسلامية، أرجع المستشرقون أغلب عناصر العمارة الإسلامية الى أصول فارسية وهيلينستية وبيزنطية وقوطية، بل أن بعضهم تمادى في تجريد العرب من كل مظهر حضاري، ووصفهم بأنهم يعانون عقدة الرعب المتأصل، من الأماكن المغلقة !!.

وقبل الانتهاء من ارتباط الآثار بالتراث المعماري، يجدر أن نعرج على موضوع يتصل بالعمارة، وهو ماعرف في الشعر العربي بالبكاء على الأطلال. فقد درج الشعراء العرب في الجاهلية، في مطالع قصائدهم، على البدء بعدة أبيات يتحدثون فيها عن لوعتهم وحسرتهم، على أيام مضت، وأطلال اندرست. (وما الأطلال، إلا الآثار). وقد ظهر البكاء على الأطلال في الشعر الجاهلي قبيل الإسلام عقب الفترة، التي شهدت انهيار الممالك العربية وسقوطها. فقد سقطت مملكة الأنباط في القرن الأول الميلادي، ومملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي، ومملكة كندة في القرن الرابع الميلادي فكأن الشاعر العربي كان يبكي سقوط هذه الممالك في اللاوعي ، دون أن يشعر أنه يتحدث عن ماض عريق ولى ، بسقوط تلك الممالك. ثم شهدت الجزير ة العربية فيما بعد، فترة اضطرابات تغلبت فيها التوجهات القبلية على التوجهات القومية ، ولم تعد للعرب دولة يتحدون تحت لوائها، فعاشت القبائل على الغزو والقتال. ولكن إرهاصات التوحد بدأت في الظهور مرة أخرى قبيل الإسلام، عندما توحدت القبائل العربية وقاتلت جيوش الفرس في موقعة ذي قار، وانتصر العرب على غير العرب لأول مرة، بعد أن كانت أيام العرب كلها حروب أهلية طاحنة. ثم جاء الإسلام ليتوحد العرب تحت رايته ويحملون لواءه إلى شتى بقاع الأرض.

الفنون :

كانت الفنون في حضارات الجزيرة العربية قبل الإسلام، مقترنة -إلى حد كبير- بالمعتقدات الدينية، خاصة في النحت والتصوير. ومن الجدير بالذكر أن العرب عندما عبدوا الأصنام، لم تكن عبادتهم اياها خالصة، أي أنهم كانوا يؤمنون ويعتقدون بأن الله، سبحانه وتعالى، هو خالق الكون ومبدعه. ولذلك لم يبرع العرب في عمل التماثيل والأصنام، بل كانت عبارة عن أشكال تجريدية، لأن الذاكرة العربية أيقنت بأن الإله الحق، لا يمكن تمثيله ولاتشبيهه تشبيهاً كاملاً. وكما يحدثنا القرآن الكريم، فإن بداية فكرة عبادة الأصنام جاءت عن طريق عمل تماثيل لبعض الصالحين، يقول الله تعالي "ولاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولايغوث ويعوق ونسراً" (سورة نوح ، الآية ٢٣) ، ومن ثم تحول الناس لعبادتهم. لذا، فإن أصنام العرب لم تكن مثل المعبودات الفرعونية ، أو الإغريقية ، أو الرومانية، التي كانت تمثل مخلوقات حقيقية، أو خرافية، تمثيلاً كاملاً ومتقناً؛ بل جاءت تماثيل معبودات العرب في شكل تجريدي (Nielsen 1927: 163) . وبعضها، مثل اللات ، رمز له بصخرة، وبعضها لم تعرف له تماثيل، مثل المعبود ذو غيبة ، الذي عبد في العلا أيام اللحيانيين (أبو الحسن ١٤١٨: ٣٩٤-٣٩٥) . وكذلك كهل والمقه في كندة وسبأ. وظل اعتقاد العرب راسخاً بأن هذه المعبودات لا تمثل الله. ولذلك كان جدالهم مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعد البعثة أنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى. وبعد الإسلام انعكست تعاليمه على الفنون، فابتعد الفنان المسلم عن تصوير الأشكال الآدمية والحيوانية، وبرع في الزخارف النباتية والهندسية. وأدت التعاليم الإسلامية، أيضا، إلى قيام فن جديد هو الخط العربي، الذي برع فيه الفنان المسلم، من خلال الاعتزاز بالقرآن الكريم، والحرص على كتابته بأشكال فنية مختلفة، سواء على المخطوطات، أو على واجهات المساجد والمنابر. وبدأت بواكير فن الخط العربي تظهر على قبة الصخرة، التي شيدت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ/ ٦٩١ م . واستمرت الخطوط العربية تظهر على جميع الآثار الإسلامية، من عمائر وتحف منقولة، مثل الخزف والرخام

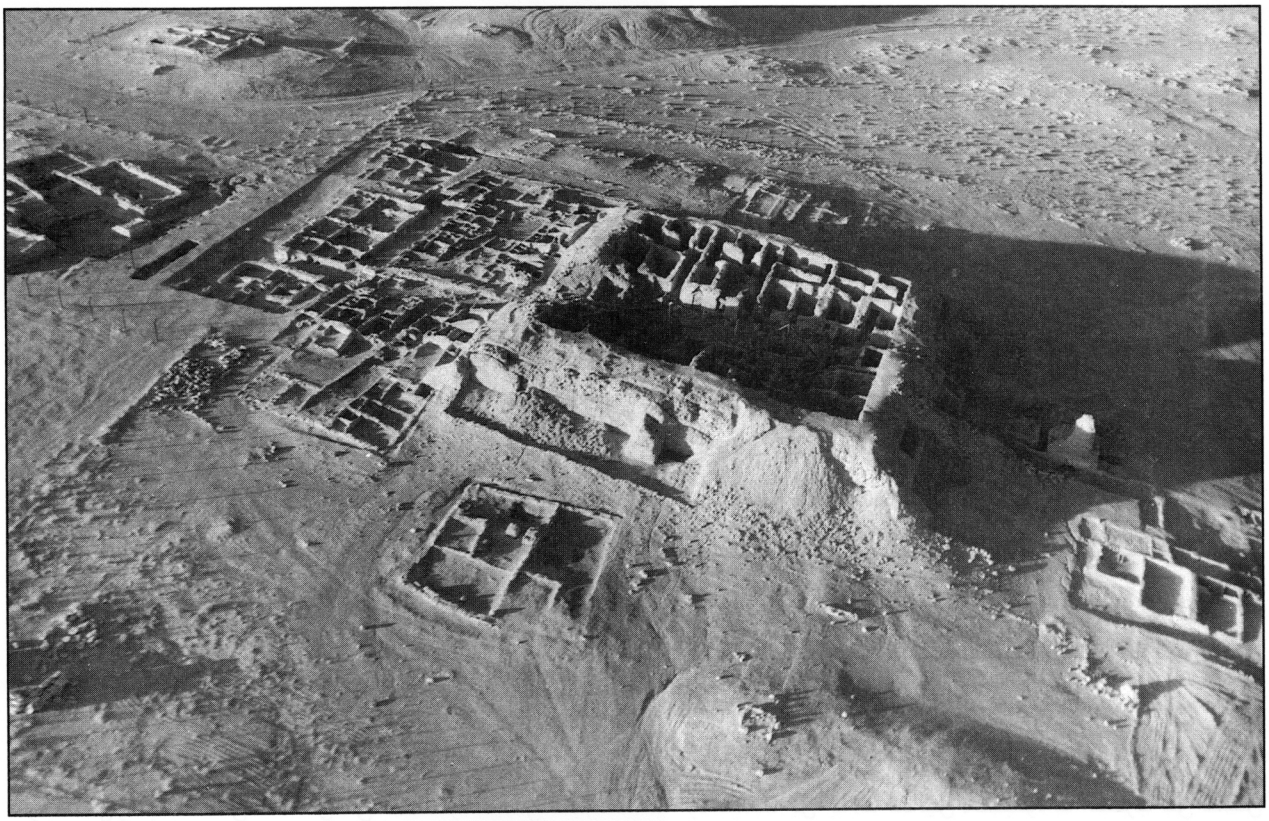

لوحة ١ : منظر لسوق قرية الفاو.

والخشب والنسيج والسجاد وغيرها، إضافة الى المخطوطات والتي شملت القرآن الكريم ، وكتب العلوم المختلفة.

أما الزخارف النباتية، فقد برع فيها الفنان المسلم ، حتى يبتعد عن تصوير الرسوم الحية، وإن كانت بعض الآثار الإسلامية المبكرة، من عمائر وتحف منقولة قد زخرفت بالرسوم الحية، ومنها القصور الأموية في صحراء الشام، مثل قصر هشام بخربة المفجر ، وقصر الحير الغربي، وقصر الحير الشرقي ، وقصير عمرة ، فقد حفلت هذه القصور بلوحات من الفسيفساء، أو الألوان المائية (الفريسكو)، التي تمثل مناظر صيد أو صوراً آدمية وحيوانية، لموضوعات مختلفة. وقد حاول المستشرقون هنا أيضاً تأصيل طريقة الرسم بالألوان المائية (الفريسكو)، إلى أصول رومانية وبيزنطية. إلا أن الاكتشافات الأثرية في قرية الفاو، وفي شبوة بحضرموت، أثبتت أن العرب قد عرفوا هذا النوع من الرسوم ،التي تقوم أساساً على طلاء الجدران بطبقة رقيقة من الجص، والرسم عليه قبل أن يجف (لوحة :١)، ومن المشاهد التي نراها حتي اليوم في البيوت العربية، تزيينها ببعض صور الحيوانات والطيور والناس: إن ما يرسم على البيوت في بعض البلاد العربية والإسلامية، من مناظر رحلة الحج وغيرها، فإن ذلك كان صدى لما عرفه العرب قبل الإسلام. فقد عثر في دكان فنان قرية الفاو على ثلاث لوحات، تمثل الأولى رحلة صيد للجمال قام بها شخص يمتطي صهوة جواده؛ والثانية رسم شخص كتب فوقه اسمه، والثالثة تمثل كلاباً تسير في معية أحد المواكب، ورسم لبعض الكواكب ورسوم آدمية في شكل تجريدي (الأنصاري ١٤٠٢: ٢٤-٢٥).

ولكن شيئاً فشيئاً تخلص الفنان المسلم من الزخارف الحية ، وتركز إبداعه في الزخارف النباتية، التي أبدع فيها مع مرور الزمن فناً إسلامياً خالصاً، هو ماعرف في تاريخ الفن بالتوريق "الأرابيسك"، وهو عبارة عن زخرفة نباتية غير متناهية كما برع الفنان المسلم في تشكيل نماذج رائعة من الرسوم الهندسية المبتكرة.

تمثلت بصفة خاصة في أعمال الفسيفساء وفي أعمال الخزف والزجاج والخشب والحجر والرخام والنسيج والسجاد.

إذن فإن التعاليم الإسلامية، التي لاتسمح بتصوير الكائنات الحية، من إنسان وطير وحيوان، حالت دون أن يكون الفن وسيلة تقرب من أجل الدين، كما كان الحال في الحضارات العربية قبل الإسلام. فأوقف الإسلام اقتران المظاهر المادية بالعقيدة، وفي هذا الصدد يروي المؤرخون أن رجلاً اسمه أبو جزأة، جاء إلى ابن عباس رضي الله عنهما وقال له : انه كان رساماً يرسم الصور ويرتزق منها ، والآن فقد حرم الإسلام التصوير. فقال له ابن عباس: صور ماليس فيه روح.

وانتج إبداع الفنان المسلم في الزخارف النباتية ، ماعرف في تاريخ الفن بطراز سامراء (بداية القرن الثالث الهجري)، وهي طرز زخرفية قامت أساساً على الزخارف النباتية. وكانت في الطراز الأول محاكية للطبيعة، وفي الثاني أقل تجريداً أما الطراز الثالث فكان أكثر تجريداً.

في الإطار نفسه يجدر أن نذكر أن المسكوكات، التي كانت متداولة لدى العرب قبيل الإسلام، من الدراهم الفارسية والدنانير والفلوس البيزنطية إضافة إلى مسكوكات بعض الممالك العربية، مثل المسكوكات الحميرية، كانت تحمل صوراً للملوك، ورموزاً تعبر عن عقائد تلك الأمم. فقد صور على الدراهم الفارسية بيت النار والكهنة، وعلى الدنانير والفلوس البيزنطية الصلبان وصور الأباطرة البيزنطيين. وبعد الإسلام أقر الرسول، صلى الله عليه وسلم، استخدام هذه المسكوكات في التداول، ثم بدأت خطوات التعريب. فبدأ الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إضافة بعض العبارات على تلك المسكوكات، مثل بسم الله، وبسم الله ربي وغيرها. وبدأت أولى خطوات التعريب في عهد الخلفية الأموي عبد الملك بن مروان، الذي ضرب في البداية مسكوكات نقش عليها صورته، متقلداً سيفه. وضربت في عهده مسكوكات عليها رسم لثلاثة أشخاص. ثم عربت المسكوكات الإسلامية تماماً، وحذفت منها الصور والرموز الدينية، وصارت زخرفتها الأساسية هي الخط العربي وبعض الزخارف النباتية. وكانت بداية التعريب في سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م، لكن الصور ظلت تظهر على بعض الفلوس، التي ضربت في العصر الأموي، كما ظهرت الصور على المسكوكات الإسلامية من حين لآخر، خاصة على المسكوكات التذكارية. كما أن بعض الدول الإسلامية كانت مسكوكاتها حافلة بالصور، مثل بني أرتق في شمال العراق، مابين القرنين السادس والسابع الهجريين (محمد ١٩٦٥: ٤٢؛ العش ١٤٠٤:١٩٧؛ Lane-Poole 1877: 221).

اللغة والكتابة :

عرف العرب الكتابة، وكانت لهم عدة أنواع من الخطوط. فالخط المسند استعمل في ممالك جنوب الجزيرة العربية: سبأ، ومعين ، وقتبان ، وحضرموت، وأوسان ، وحمير ،وكندة . كما عرف أيضاً في الشمال، حيث استعمله اللحيانيون في العلا، إلى جانب الخط الآرامي، الذي تطور على يد الأنباط فكتبوا به في البتراء، وفي الحجر، ثم في تدمر. أما أرباب القوافل وسكان البادية، فقد استخدموا ماعرف اصطلاحاً بالكتابات الثمودية والصفوية، إذ كتب أرباب القوافل بخط الأعراب، عندما كانوا ينتقلون بقوافلهم بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها وينزلون في حواضر اليمامة والحجاز واليمن. وكانوا يختارون من حروف هذا الخط وسوماً يسمون بها أنعامهم، ومازالت هذه العادة معروفة لدى العرب حتى يومنا هذا .

وتعد الكتابة من أهم الموروثات التراثية ، بل لولا الكتابة لما كان هناك تراث. فقد كانت الكتابة هي الأداة، التي انتقل عن طريقها التراث من جيل إلى جيل. وقد تطور الخط العربي من الكتابات العربية النبطية. وبعد ظهور الإسلام اهتم المسلمون بالكتابة، من أجل تدوين القرآن الكريم. وكانت الكتابة تتم على العسب (جريد النخل)، والعظم والرق والأديم والبردي. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن كثيراً من المصادر التاريخية

لوحة ٢ : رسم ملون (فريسكو) وجد في معبد من معابد قرية الفاو ، وهو لمعبود من المعبودات ، لعله (باخوس).

العربية، تحدثت عن جهل العرب بالكتابة قبل الإسلام، إلا أن الأدلة الأثرية، التي تزخر بها الجزيرة العربية، تدل على العكس من ذلك تماماً. فما ترك العرب مكاناً في جزيرتهم إلا وسجلوا عليه نصوصاً قيمة، بجانب ماكشف عنه من كتابات في المراكز الحضارية ، في شتى أنحاء الجزيرة العربية. ففي قرية الفاو، أظهرت الاكتشافات العديد من الأسماء والمفردات، منها شاهد قبر الملك معاوية بن ربيعة ملك قحطان ومذحج، كما استطعنا من خلال الكتابات، التي عثر عليها في الفاو، التعرف على أسماء بعض المعبودات، مثل: كهل وإل واللات وعثتر - أشرق والعزى ومناة وود وشمس. ومن أسماء الأعلام : عبد العزى وعبد شمس وأقصى ، وبهذا يتضح أن العرب لم يكونوا أمة لايجيدون بل يعرفون القراءة والكتابة (الأنصاري ١٤٠٢ : ٢٣-٢٤). وإلا ما معنى القدر الكبير من ألفاظ الكتابة، التي وردت في القرآن الكريم؟ وهل يمكن لمجتمع أن يرتفع إلى هذا المستوى من البلاغة والفصاحة، وأن يكون القرآن الكريم معجزاً له ، وهو جاهل بالقراءة والكتابة ؟ وهل يتفق أن يجتمع لرسول الله، صلى الله عليه وسلم ، حوالي ٦٠ كاتباً للوحي، مع ماقيل من ندرة العارفين بالقراءة والكتابة؟

وكذلك تأثرت طريقة الكتابة بعد الإسلام بما كان متبعاً في الكتابات، التي عثر عليها في قرية الفاو. فالنص الكتابي يوجد داخل إطار محدد، وهي الطريقة التي استخدمت على نطاق واسع من قبل الخطاطين العرب المسلمين بعد الإسلام.

وظل العرب بعد الإسلام يستخدمون البردي والرق في الكتابة، حتى دخلت صناعة الورق في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد. ولم يمر زمن طويل، حتى كان المسلمون قد أدخلوا تحسينات كبيرة على هذه الصناعة، وساعدت صناعة الورق وسهولته في الكتابة، على تسجيل التراث الإسلامي. فبدأت في العصر العباسي حركة تدوين كل العلوم والمعارف، التي توصل إليها المسلمون ، إلى جانب ازدهار حركة ترجمة

علوم الأمم الأخرى، مثل الفرس واليونان.

وارتبط التراث بالآثار أيضاً في اللغة ومفرداتها، فما زالت بعض الكلمات العربية القديمة مستعملة حتى الآن في اللهجات الفصيحة والعامية، لدى الشعوب العربية. ونذكر منها المسجد على سبيل المثال. وقد عرف العرب المسجد بوصفه مكاناً للعبادة قبل الإسلام، وقد جاء في نقوش المنطقة الدينية في الحجر (مدائن صالح) نقش نصه :

"هذا المسجد الذي أنشأه شكوم بن ثورا لأعرا الموجود ببصرى إله رب إل ...." (الأنصاري ١٤٠٤: ٤٠-٤١).

ومن أمثلة وجود بعض الكلمات القديمة، استعمال اللغة الحميرية، التي تقوم على حذف حرف اللام من آداة التعريف، وإبدالها بحرف الميم. وكانت هذه اللغة -وماتزال دارجة- بين سكان تهامة وعسير وبعض مناطق اليمن ،وورد بها حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد روي عاصم بن مالك الأشعري رضى الله عنه قال :

"سأل سائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يارسول الله هل من امبر امصيام في امسفر قال صلى الله عليه وسلم : ليس من امبر امصيام في امسفر".

الزراعة :

كانت ندرة المياه في الجزيرة العربية هي الشغل الشاغل للإنسان منذ أقدم العصور، في بيئة عرفت بقلة مصادر المياه وشحها. فاعتمدت الزراعة بصفة أساسية على مياه الأمطار والآبار والعيون، مما استدعى معرفتهم بالأمطار وصفاتها، وعلامات سقوطها وانحباسها، والآبار وطرق حفرها، ووسائل رفع المياه من الآبار، والأدوات المستعملة في ذلك، وصيانة الآبار وحمايتها، ووسائل خزن المياه، كالمآجل والبرك والكرف والأحواض والصهاريج والمقالد والأهوار والبحيرات والمناضح، وتوضح هذه المسميات مدى الغنى الواضح في مفردات مصانع جمع المياه، ومدى الحاجة إليها.

وتحدثت النقوش العربية عن الأراضي الزراعية، ومواسم الزراعة وأساليبها ومحاصيلها، والحصاد والدياسة وتخزين المحاصيل الزراعية، والمعاملات الزراعية، ومايتبع ذلك من عقود وضرائب وتنظيمات زراعية، إضافة الى الآفات والكوارث الزراعية وحظائر الحيوانات (الفاسي ١٤١٤: ١٩٥-١٩٦)؛ أبو الحسن ١٤١٨: ٣٩٩-٤٠٢؛ النعيم ١٤٢٠: ١٩٥-٢٠٤). واعتمد العرب على أساليب عديد لرفع المياه من الآبار والعيون، وتوزيعها على الآراضي الزراعية. وقد عرفت العديد من المدن العربية أساليب متقدمة في الري، منها مدينة العلا ، التي عرفت تنظيماً متقدماً لقنوات الري. فقد كانت القنوات تحمل المياه من الآبار، ويتم تبطين القنوات بالأحجار حتى تمنع المياه من التسرب ، توزع القنوات المياه على المزارع (Jussen & Savignac 1997: 38-40).

وتعد الزراعة أحد المظاهر، التي تتطابق فيها الآثار مع مانعرفه من التراث في عدة مجالات، مثل : طرق الري والحصاد، وأنواع المحاصيل، ووقت الزراعة، مع مايلزم ذلك من معرفة بأوقات دخول الفصول وانتهائها، واستخدام بعض المعدات، مثل الساعات الشمسية.

الحرف اليدوية والصناعات التقليدية :

ذكرت النقوش العربية القديمة العديد من الصناعات، التي أتقنها العرب، مثل: صناعة الخشب والكتان، ودباغة الجلود، والغزل والنسيج وأسماء المنسوجات وأنواعها، وآلات النسيج، وأسماء النساجين والصباغة والأصباغ، وبالبحث في نقوش المسند الجنوبي وجد ما يقارب من ثلاثمائة مفردة تدل على حرفة، أوصناعة، أو مهنة، عرفت في ممالك جنوب الجزيرة العربية : أوسان ، وقتبان ، وحضرموت، ومعين وسبأ وحمير وكندة (الأنصاري ١٤٠٢ : ٢٥-٣٠).

وتوجد العديد من الحرف والصناعات، التي ارتبط فيها التراث بالآثار ارتباطاً وثيقاً، مثل الصناعات المعدنية، من سيوف وخناجر وحلى ذهبية وفضية ، وهي صناعة شهدت الكثير من الرواج عند العرب قبل الإسلام، وماتزال من الصناعات التراثية المتوارثة حتى اليوم، ومن الصناعات الأخرى النجارة، والغزل والنسيج،

والفخار، والصناعات الحجرية، وصناعة الخوص، والأطعمة، التي ماتزال تحتفظ بأسمائها القديمة، مثل السويق.

١- النجارة : تعتمد أساساً على الأخشاب المتوفرة في البيئة المحلية، مثل خشب أشجار النخيل في الواحات، أو خشب أشجار السنط والأثل، وغيرها. وتتكون المصنوعات الخشبية من الأبواب، والشبابيك، والأسرة، والصحاف، والأقداح.

٢- الصياغة : وهي صناعة الحلي والمجوهرات، وتعتمد على الذهب والفضة. وتتكون أدواتها من سندان ومطارق، ومقارض وبوتقات للصهر، والقوالب للصب.

٣- تعد الصناعات الحجرية هي الصناعة الأكثر انتشاراً وشيوعاً، لأنها صناعة ذات إنتاج كبير، لحاجة الناس الماسة إليها في حياتهم اليومية، لاستعمالها في صناعة المجامر والمذابح والموائد والتماثيل وصحائف الكتابة والمعاصر والمجارش والمطاحن والبناء، وتعد الرحى من أشهر الصناعات الحجرية الباقية إلى الآن، وتتكون من قطعتين من الحجر، السفلى ثابتة على الأرض والعليا توضع وتدار بواسطة مقبض من الخشب ، مثبت في طرفها، وتوجد فتحة في منتصف القطعة العليا توضع من خلالها الحبوب. وقد وجدت الرحى ضمن آثار كثير من المدن العربية، وماتزال مستخدمة حتى الآن.

٤- الفخار : صناعة موغلة في القدم، وماتزال متوارثة وموجودة حتى الآن. وتعتمد على الطين بوصفه المادة الخام الأساسية للصناعة، والدولاب، الذي يدار بالقدم، وبعض أدوات زخرفة يرسم بها الصانع بعض الرسوم والنقوش، ثم الفرن لحرق الفخار بعد تشكيله ، واشتهرت الممالك العربية بإنتاج أنواع جيدة من الفخار، مثل مملكة الأنباط. كما اشتهرت بعض المدن، مثل تيماء، بإنتاج أنواع كثيرة ومتعددة من الفخار (أبو درك ١٤١٩: ٦٩-٧٤). وتعد صناعة الفخار من الصناعات التقليدية، التي تشهد بوضوح على ارتباط الآثار بالتراث.

٥- الخوص : من الصناعات التي ازدهرت في الواحات، التي يكثر بها النخيل، مثل : اليمامة والأحساء والقطيف والعلا وتيماء والمدينة المنورة وغيرها ، وتعتمد هذه الصناعة على خوص سعف النخيل، وعمل أبسطة وأدوات منزلية تحفظ فيها الأطعمة وتحمل فيها الثمار، مثل المكتل. واستخدمت عيدان جريد النخيل في صناعة الأقفاص، والأسرة، وأسقف المنازل، ولاتزال هذه المنتجات مستعملة حتى الوقت الحاضر، في بعض مناطق الجزيرة العربية، وفي بلاد الشام، ووادي النيل، وشمال أفريقيا.

٦-الغزل والنسيج : برع العرب في غزل صوف الأغنام، ووبر الجمال، إلى خيوط، ومن ثم حياكتها إلى ملابس وأشرعة. وكان الصوف هو المادة الخام الأساسية في صناعة الملابس، إلى جانب استخدام الأنوال اليدوية، في صناعة الأبسطة والسجاجيد.

٧- الحدادة : تعتمد على الحديد وصهره وطرقه وتشكيله، بواسطة أدوات متنوعة، مثل : المطارق والمثاقب والمبارد والكير والسندان. وقد برع العرب في هذه الصناعة وبصفة خاصة السيوف، التي كانت السلاح الوحيد للدفاع عن النفس ، وأطلقوا عليها عدة مسميات، مثل المهند والصمصام وذو الفقار، إلى جانب صناعة الخناجر والأدوات المنزلية العديدة، التي يحتاج اليها الإنسان في حياته اليومية. وقد تفوق العرب في صهر الرصاص والبرونز وصبهما، وقد صنعوا من البرونز المسكوكات والمكاييل والموازين، كما صنعوا منه تماثيل آدمية وحيوانية ومصابيح ومسارج ولوحات الكتابة ، التي توضع في المعابد، أو تعلق على جدرانها من الخارج. ووجدت إحدى تلك اللوحات معلقة على جدران معبد (عشتر-ود) من الخارج ، في قرية الفاو (الأنصاري ١٤٠٢: ٢٨) ويذكر هذا بما كان يعلق على أستار الكعبة، وصحيفة قريش التي علقتها عند مقاطعتها لبني هاشم. والحدادة، أيضاً من الصناعات التي ارتبط فيها التراث بالآثار، ارتباطاً وثيقاً.

الفنون الشعبية :

كان العرب مولعون بالفنون منذ القدم. وقد ارتبطت هذه الفنون قبل الإسلام بالدين والعقيدة في الأغلب. وكانت الرقصات والأغاني تؤدى باعتبارها جزءاً من الطقوس الدينية. وعثر على الكثير من النقوش، التي تمثل مناظر الرقص والطرب ، وغيرها، على العمائر والتحف المنقولة، التي تعود للحضارات العربية قبل الإسلام، ومن أمثلتها لوحة تمثل منظر رقص عثر عليها في سفوح جبل مريبخ، الذي يقع غربي قرية الفاو. وتأثرت بذلك الفنون الإسلامية فيما بعد. فرأينا العديد من التحف الإسلامية، التي صورت عليها مناظر الرقص والمطربين، وغير ذلك، فنجدها على الخزف والخشب، وفي وقتنا الحاضر نحس أن الرقصات والأغاني الشعبية، ماهي إلا صدى لما عرفه العرب قبل الإسلام وبعده، مثل :

١- العرضة : وهي رقصة الحرب، ويؤديها صفان من الرجال يقفان متقابلين، وبينهما يقف حاملي الدفوف والطبول. وربما كانت العرضة تعني استعراض الجيوش قبل خروجها للقتال ، ومن ثم إلقاء بعض الأشعار والخطب الحماسية لشحذ همم المحاربين، ثم صارت من الرقصات التراثية، ويطلق على الشعر الذي يقال أثناء العرضة "حربيات" ، وقد أصبحت العرضة فيما بعد، رقصة النصر على الأعداء.

٢- الهجيني : هو غناء أرباب القوافل ، وقد عرف العرب السفر والترحال منذ القدم، عندما كانوا ينقلون تجارتهم بين جنوبي الجزيرة العربية وشماليها. وكانوا يقطعون المسافات الشاسعة بالغناء، وهو الفن الذي عرف بالحداء ، واستمر هذا الفن بعد الإسلام، فقد استقبل الأنصار الرسول، صلى الله عليه وسلم ، بعد وصوله إلى المدينة المنورة وهو ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

كما كان الصحابة رضوان الله عليهم ينشدون أثناء بنائهم مسجد قباء :

لاعيش إلا عيش الآخرة
اللهم فأرحم الأنصار والمهاجرة

(السهيلي ١٣٣٢: ٢/١٢).

وفي موقعة أحد كانت هند بنت عتبة ، تستحث جيش المشركين على الثبات في القتال قائلة:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشى القطا النواتق
إن تقبلوا نعانق وإن تدبروا نفارق
فراق غير وامق

السهيلي ١٣٣٢: ٢/١٣٠).

كما ارتجل أحد الصحابة، الذين كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، حداء يلتزم فيه بالتعاليم الإسلامية، ويعبر عن عقيدته فكان يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولاتصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا

وعرف العرب، منذ القدم أيضاً، بعض الآلات الموسيقية، مثل الربابة والسمسمية والمزمار، وهناك صور للسمسمية في جبال عكمة بالعلا، ترجع الى فترة حكم اللحيانيين.

وقد ساعدت الأعمال الرائدة، التي أنجزها نخبة من الدارسين العرب، في مجال الدراسات اللغوية والحضارية والثقافية، من خلال خلخلة النصوص العربية القديمة، وفك طلاسمها، وإخراجها للباحثين، في فهم هذه الحقائق والوصول اليها، بعد أن كان هذا العلم حكراً على من يكتبون أو يقرأون بلغات أجنبية من المتخصصين في هذا الجانب، وبذلك لم يعد تراثنا حكراً للآخرين يفسرونه كيفما يشاءون، ليوافق توجهاتهم الثقافية والأيدلوجية.

أ. د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري : عضو مجلس الشورى.

المراجع :

أولاً : المراجع العربية :

الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ١٣٥٢ هـ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي ملحس ، المطبعة الماجدية.

الأنصاري ، عبد الرحمن الطيب ١٤٠٢ هـ **قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، جامعة الرياض ، الرياض.

الأنصاري ، عبد الرحمن الطيب وأحمد غزال ، جيفري وكنج ١٤٠٤ هـ **مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية العلا (ديدان) الحجر (مدائن صالح)** ، قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود، الرياض.

أبو الحسن ، حسين بن علي ١٤١٨ هـ **قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض .

أبو درك ، حامد إبراهيم ١٤١٩هـ : **مقدمة عن آثار تيماء**، الطبعة الثانية، وكالة الآثار والمتاحف ، الرياض.

السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ١٣٣٢هـ : **الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام** ، مطبعة الجمالية ، مصر.

شافعي ، فريد ١٩٧٠م **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، المجلد الأول ، عصر الولاة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

العش ، محمد أبو الفرج ١٤٠٤هـ **النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني** ، وزارة الإعلام، الدوحة، قطر.

الفاسي، هتون أجواد ١٤١٤ هـ **الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة مابين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي** ، الرياض.

ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ١٣٤٣ هـ **كتاب الأصنام** تحقيق: أحمد زكي، الهيئة القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر .

محمد ، عبد الرحمن فهمي ١٩٦٥م **موسوعة النقود العربية وعلم النميات - فجر السكة العربية**، دار الكتب ، القاهرة ، مصر.

النعيم ، نورة على عبد الله ١٤٢٠ هـ **التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض.

هيلي، جون ١٤٠٦ هـ "الأنباط ومدائن صالح"، **أطلال**، ١٠ : ١٣٥-١٤٤.

ثانياً : المراجع غير العربية :

Houes of Seljock. Urtuk, Zengee etc. in the British Museum, London.

Nielsen, D, 1927 **Handbuch det Altarabischen Altertumskunde** Leipzig.

Jussen. A. et Savignac. R, 1997 **Mission Archeologique en Arabie II EL-'ELA, D'HEGRA ATEIMA, Harrah de Tebouk.** Institut - LE CAIRE.

Lane-Poole, S, 1877 **The Coins of the Turkman**